

الخطاب بين التبليغ والتّهذيب قراءة في مبدأ التصديق عند طه عبد الرحمان

Exploring the Principle of *Tasdik* in Taha Abderrahmane's Thought

محمد أمين مقروود¹

المدرسة العليا للأساتذة الكاتبة آسيا جبار-قسنطينة-، الجزائر

makroud.mohamedlamine@ensc.dz

 [0009-0008-2087-4692](https://orcid.org/0009-0008-2087-4692)

Received 01/12/2025

Accepted 07/06/2026

Published 01/07/2026

الملخص

يتناول هذا البحث مسألة قواعد التخاطب، مبيّنا خلفياتها المعرفية ونشأتها وتطورها من خلال النماذج المختلفة لها، وقد ركّز على نماذج تهذيبية ثلاثة لأنّها الصلّة الأقوى بالموضوع المطروح، فهي التي أوردها "طه عبد الرحمان" وقام بنقدها، فتمثّل بذلك السياق الذي نشأ فيه "نموذج التصديق". وتطرّق بعد ذلك لنموذج التصديق عند طه عبد الرحمان، حيث عرض مفاهيمه وقواعده، وحلّل مضامينه، ثم عَقَد مقارنة بينه وبين النماذج السابقة عليه مستخرجاً جوانب الاتفاق والافتراق بينهما، ثم سعى إلى تفسير أسباب الاختلاف في هذا النموذج، وربّط تلك الأسباب بالخلفيات المعرفية للنموذج. وتوصّل البحث إلى مجموعة من النتائج، ففيما يتعلّق بنماذج التخاطب التهذيبية؛ وجد أنّ جميعها حافظت على الفرضيات الأولى التي وضعها "غرايس" من أنّ هناك قواعد ضمنية مشتركة بين المتخاطبين تحكم تخاطبهم، وأنّ هذه القواعد ترجع أساساً إلى مفهوم التعاون، كما حافظت على الطريقة نفسها في صياغة القواعد، وإن اختلفت عن النموذج الغرايسي في تفسير مفهوم التعاون بنقله من الدلالة على الجانب التبليغي التواصلّي فقط إلى الدلالة عليه وعلى الجانب التهذيبي الأخلاقيّ أيضاً. وفيما يتعلّق بنموذج "التصديق" في علاقته مع النماذج الأخرى، توصّل البحث إلى نتيجة عامّة مفادها أنّ مبدأ "التصديق" يجمع بين "الامتداد" و"التعديل"؛ تمثّل الامتداد في (التوافق مع النماذج السابقة في كونه نموذجاً تداولياً يتضمّن قواعد التعاون والقواعد التهذيبية التي جاءت بها، مع المحافظة على الطريقة الشكلية في بناء النموذج)، وتمثّل التعديل في (التكميل لنقائص النماذج السابقة في جانبها التبليغي والتهذيبي). وأهم تعديل كان في الجانب التهذيبي؛ لأنه أدخل فيه بُعدين غائبين في كلّ النماذج السابقة وهما: البعد النفسيّ والبعد التعبدّي، فكان مفهوم التهذيب عنده ذا أبعاد ثلاثة هي: البعد الاجتماعيّ وأساسه القرب، والبعد النفسيّ وأساسه الصدق، والبعد التعبدّي وأساسه الإخلاص.

الكلمات الدالة: الخطاب-التبليغ-التهذيب-نموذج التصديق-طه عبد الرحمان.

¹ المؤلف المراسل: محمد أمين مقروود: makroud.mohamedlamine@ensc.dz

محمد أمين مقرود

Abstract

This research addresses the issue of discourse rules, clarifying their epistemological background, origins, and development through various models. It focuses on three politeness models because they are most closely related to the topic, as they were presented and critiqued by Taha Abd al-Rahman, thus representing the context in which the "Model of Tasdik" arose. The research then examines Taha Abd al-Rahman's Model of Tasdik, presenting its concepts and rules, analyzing its implications, and comparing it with previous models, identifying points of agreement and disagreement. It then seeks to explain the reasons for these differences within the model and connect them to its epistemological foundations. The research arrives at a number of conclusions regarding politeness communication models ; It was found that all of them maintained Grice's initial assumptions that there are implicit rules shared by interlocutors governing their communication, and that these rules are fundamentally based on the concept of cooperation. They also maintained the same method of formulating rules, although they differed from Grice's model in interpreting the concept of cooperation by shifting its meaning from denoting only the communicative aspect to also denoting the politeness and ethical aspect. Regarding the "Tasdik" model in its relationship to the other models, the research reached a general conclusion that the principle of "Tasdik" combines "extension" and "modification." Extension was represented by (its conformity with previous models in being a pragmatic model that includes the rules of cooperation and the ethical rules they introduced, while maintaining the formal method of constructing the model). Modification was represented by (compensating for the shortcomings of previous models in their communicative and ethical aspects). The most important modification was in the politeness aspect. Because he included in it two dimensions that were absent in all previous models, namely: the psychological dimension and the devotional dimension. Thus, his concept of refinement had three dimensions : the social dimension, based on closeness; the psychological dimension, based on honesty; and the devotional dimension, based on sincerity.

Keywords; Discourse; Communication; politeness; Model of Tasdik; Taha Abd al-Rahman.

. مقدمة

عرفت البحوث اللسانية الحديثة دراسة لقواعد التخاطب، منطلقاً من مسلّمات معرفية تقضي بأنّ التواصل الكلامي البشري لا يمكن أن يتمّ إلا وفق قواعد تحكمه، وأنجزت في ذلك نماذج محاكية لتلك القواعد بغرض وصفها وتفسير عملها، وكانت هذه النماذج في بداية ظهورها تحاكي الجانب التواصلية التبليغي من التخاطب فقط، ثم جاءت نماذج أخرى أدخلت الجانب التعاملي التهذيبي له، وعدد النماذج التهذيبيّة كثير، تعرّض "طه عبد الرحمن" لثلاثة منها بالعرض والنقد والتعديل، ثم أنشأ نموذجاً معديلاً ومتممًا للنقص الحاصل فيها ومؤسساً لمفهوم جديد للتهذيب، سمّى نموذج "مبدأ التصديق". ويأتي هذا البحث ليقدم قراءة في هذا النموذج التصديقي، منطلقاً من أسئلة مؤطرة لتلك القراءة هي: كيف نشأ البحث في قواعد التخاطب؟ وما خلفياته المعرفية؟ وما نماذجه الأساسية؟ وتمثّل هذه الأسئلة أسئلة خارجية أو أسئلة السياق الذي نشأ فيه نموذج التصديق. وهناك أسئلة داخلية حول النموذج هي: في أي شيء يتفق نموذج التصديق مع النماذج الأخرى وفي أي شيء يفترق؟ وهذا السؤال يتضمّن سؤالاً حول جوانب التجديد في هذا النموذج؟ ثم سؤال حول الخلفيات المعرفية المؤسسة لنموذج التصديق؟ واعتمدنا في قراءة هذا النموذج على آليات العرض، ثم التحليل، ثم المقارنة، ثم التفسير، سعياً إلى فهم عميق لهذا النموذج الذي يتجاوز التعديل على النماذج السابقة فقط إلى التأسيس لمفهوم جديد للتهذيب يستند إلى الرؤية التراثية العربية.

1. الخلفية المعرفية لمبادئ التخاطب

نتطلق فكرة مبادئ أو قواعد التخاطب من فرضية تقضي بأنه لا يمكن أن يكون هناك تواصل ناجح ما لم تكن هناك "قواعد مشتركة" تحترمها الأطراف المتخاطبة، وهذه القواعد تتجاوز نظام اللغة إلى أشياء أخرى، فلا يكفي أن تشترك الأطراف المتواصلة في معرفة لغة ما بل يجب أن يكون هناك معرفة تواصلية يستطيع المخاطب أن يوصل من خلالها معانيه ومقاصده بسهولة حتّى وإن

كانت بأساليب وطرق غير مباشرة ويستطيع المخاطب أن يصل إلى تلك المعاني والمقاصد بسهولة وإن كانت بأساليب وطرق غير مباشرة.

وتستند فرضية "القواعد المشتركة" إلى مجموعة من المسلمات:

(أ) التخاطب عملية عقلية: وتتأتى هذه العقلانية من أمرين: أن "التخاطب يقتضي إشراك جانبيين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال" (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 237)؛ إذ من شروط الخطاب أن يكون مقصوداً، ولا يمكن للقصدية إلا أن تصدر من كائن عاقل. والأمر الثاني أن "التخاطب سلوك هادف عقلائي" (Grice, 1975, p. 47)؛ إذ إن تحديد الهدف أو الغرض من الخطاب ضروري في بنائه.

فنفهم مما سبق أن العقلاء ينتجون فعلاً عقلائياً، ولا يكون السلوك العقلاني عشوائياً بل لابد له أن يستند إلى قواعد تحكمه، ومن هنا تُستنتج فكرة القواعد من عقلانية التخاطب.

(ب) التخاطب عملية تفاعلية: فالخطاب -كما عرّفه الأمدي (ت: 631هـ) - "أنه اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو مُتَرَبِّئ لفهمه" (الأمدي، د ت، صفحة 95، 96)، فهناك مخاطب يسعى إلى الإفهام ومخاطب يسعى إلى الفهم، فلا يمكن أن ينشأ خطاب من طرف واحد.

وذلك يحتاج إلى بناء علاقة بين الأطراف المتخاطبة تتجاوز استعمال الألفاظ، تكون تلك العلاقة ببناء قصد التوجه إلى الغير أولاً، فيكون المتكلم قاصداً بإلقائه متلقياً محدداً ويكون المتلقي قاصداً بتلقيه متكلماً محدداً، وتكون ثانياً ببناء قصد إفهام الغير فيكون المتكلم قاصداً بإفهامه متلقياً محدداً ويكون المتلقي قاصداً بفهمه متكلماً محدداً (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 214، 215)

ولا يمكن أن يكون هناك تفاعل إلا بقواعد، لأن التفاعل بناء للعلاقات، والعلاقات هي نتاج القواعد، فلا توجد علاقات من غير قواعد سابقة.

(ج) التخاطب عملية استدلالية: إذا كان التخاطب تفاعلاً فإن الاستدلال هو الطريقة التي يتفاعل بواسطتها المتخاطبون، ذلك أن هناك في الخطاب دائماً فجوة بين الدلالات المباشرة لجمل الخطاب وبين الدلالات المقصودة منها، ولا يملأ هذه الفجوة إلا الاستدلال (دان سبيرر، ديردي ويلسن، 2016، صفحة 31). فالمتكلم والمخاطب يتوخيان، كلاهما بطريقته، استدلالات تسمح للأول بوضع معنى ضمني فيما ينتجه من ملفوظات صريحة، وللثاني باستخراج المعاني الضمنية الخاصة به حسب ما يقيمه من علاقات بين الملفوظات والمعطيات التي تحصل عليها من السياق ومقام التلقظ (باتريك شارودو، دومينيك منغنو، 2008، صفحة 301) والاستدلال التخاطبي واسع وغني جداً؛ فهو يطوي كثيراً من المقدمات والنتائج، ويُفهم من القول أموراً غير التي نُطق بها (طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، 2000، صفحة 46)، ويعطي لوازم كثيرة يكون من العسير على المتلقي الإحاطة بها إذا لم يلجأ السياقات والمقامات والمبادئ التخاطبية من أجل إدراك الفائدة الإخبارية والغرض التواصلية منها (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 90)

وهنا تظهر علاقة الاستدلال بالقواعد، إذ القواعد شيء ضروري لا غنى عنه في العملية الاستدلالية في مستويات ثلاثة: مستوى بناء الاستدلال، ومستوى تحليل الاستدلال، ومستوى تحديد الاستدلال.

(د) التخاطب معرفة مشتركة: حتى يكون الاستدلال التخاطبي صحيحاً يجب أن تكون هناك معرفة مشتركة بين المتكلم والسامع، وهذه المعرفة لا تقتصر على الكفاية اللسانية فحسب، بل تتعدى ذلك إلى كفايات أيديولوجية وثقافية وكفاءات سيكولوجية (أوريكيوني، 2007، صفحة 26)، ويعرّفها "طه عبد الرحمن" بقوله: «المعرفة المشتركة: وهي جملة من الاعتقادات والتصورات والتفوييمات عن الذات والغير والأشياء والمعاني، يَشترك فيها المتكلم والمخاطب مع جمهور الناطقين، وقد نميز فيها أقساماً أربعة: معرفة لغوية، ومعرفة ثقافية، ومعرفة عملية، ومعرفة حوارية» (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة

محمد لين مقرود

فهذه المعرفة المشتركة لا تعمل إلا من خلال قواعد، بل إن فكرة القواعد قائمة أساساً على تنظيم تبادل المعرفة المشتركة كما ونوعاً وصدقاً وملاءمة.

2. التعاون مرجع لقواعد التخاطب

بعد اتفاق الدارسين على أن التخاطب تحكمه قواعد ضمنية فإنهم يميلون إلى الاتفاق على شيء آخر وهو أن الفكرة التي ترجع إليها تلك القواعد هي فكرة التعاون، وتنسب هذه الفكرة إلى الفيلسوف الأمريكي بول غرايس (P. Grice)، فهو أول من نظر لها في مقالاته الشهيرة "المنطق والتخاطب"، وظلت هذه الفكرة حاضرة لدى الدارسين للتخاطب حتى أولئك الذين خالفوه في تفصيلاتها أو القواعد الناتجة عنها بوضع نماذج معدلة أو متجاوزة لمبدأ "غرايس"، ف"بروان" (Brown) و"ليفنسون" (Levinson) وهما صاحباً نموذجاً معدلاً يُقرّان بأن الافتراض الأساسي لنموذجهما هو ما جاء في مبدأ غرايس من أن المتخاطبين بناءً على طبيعتهم العقلانية يفترضون التعاون بينهم (Penelope Brown and STEPHEN C. LEVINSON, 1978, 1987, p. 4).

مضمون مبدأ التعاون (The cooperative Principle) عند "غرايس" هو: اجعل مساهمتك في حال التخاطب متوافقة مع ما يطلبه غرضه واتجاهه (Grice, 1975, p. 45)، ويترجمه طه عبد الرحمن بـ "ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض" (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 232).

ويتفرّع إلى أربعة قواعد، سمّاها غرايس قواعد المحادثة Conversational maxims، وهي: قاعدة الكمية (القدر): وهي تخصّ كمية المعلومات التي يجب توفيرها، وتتفرّع إلى مقولتين: أ. لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته. ب. لا تجعل إفادتك تتعدّى القدر المطلوب.

قاعدة الكيفية (الكيف): وتتعلق بالقاعدة العامة (حاول أن تكون مشاركتك صادقة)، وتتفرّع إلى مقولتين: أ. لا تقل ما تعلم كذبه. ب. لا تقل ما ليست لك عليه بيّنة.

قاعدة الإضافة (الملاءمة): وهي تختصّ بعلاقة الخبر بمقتضى الحال، ومقولتها: - ليناسب مقالك مقامك، أو اجعل مشاركتك ملائمة.

قاعدة الجهة: وهي لا تهتمّ بالمقول، بل بكيفية القول، وتتفرّع إلى أربعة مقولات هي: أ. لتحتز من الالتباس. ب. لتحتز من الإجمال. ج. لتتكلم بإيجاز. د. لترتب كلامك. (Grice, 1975, pp. 45-48) (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 238، 239) (فاخوري، 2013، صفحة 15، 16) (صحراوي، 2005، صفحة 33، 34)

وتقوم فلسفة هذه المبدأ "على فرضية تتمثل في وجود توازن بين سلوك المتكلم وسلوك المرسل إليه" (باتريك شارودو، دومينيك منغنو، 2008، صفحة 302)، يظهر هذا التوازن في عملية تواصلية تفاعلية، حيث يكون كلٌّ من المتكلم والمخاطب في حالة تعاون بينهما، فكلٌّ منهما يسعى إلى إقامة تواصل مثالي ناجح، يصل فيه الطرفان إلى مبتغاهما فيه، وأدنى درجات المبتغى الإفهام من المتكلم والفهم من المخاطب (مقرود، 2020، صفحة 188)

ويرى "غرايس" أن التعاون في التخاطب أمر طبيعي وحقيقة تجريبية يتعامل الناس بها بعد أن يكتسبونها في مرحلة طفولتهم، وأنه يكون حول الغرض حيث يدرك فيه كل طرف الهدف المشترك للتخاطب، ثم الاتجاه أو المسار الذي يكون مقبولا للطرفين وقد يبنونه أثناء التخاطب ويطوّران (Grice, 1975, pp. 45-48).

فهذه القواعد يسلّم بها الناس ضمناً عند التخاطب، فهي أشبه بالمبادئ العامة للتفكير، فالمخاطبون يفترضون أن المتكلم يحترم هذا المبادئ، فإن التزم بها في كلامه كان التواصل مثالياً، وإن أخلّ بها أو بإحداها فإنهم يبقون على ذلك الافتراض قائماً، لكنهم يدركون أن المتكلم يريد أن يبلغهم معنى إضافياً يختلف عن المعنى الذي تبلغه كلماته (فاخوري، 2013، صفحة 16) (إسماعيل، 2005، صفحة 88، 89)، ففي الحالة الأولى يعوّل المخاطب على تعاون المتكلم ويكون المعنى مباشراً، وفي الحالة الثانية يعوّل المتكلم على تعاون المخاطب ويكون المعنى غير مباشر.

ويرى "طه عبد الرحمان" أن اتباع قواعد التخاطب يُحصِّل فائدة قريبة هي أقرب إلى ما يسمّيه الأصوليون بـ "المنطوق"، والخروج عن القواعد يحصل فائدة بعيدة هي أقرب إلى ما يسمّيه الأصوليون بـ "المفهوم" أو "المسكوت عنه" أو "دلالة الدلالة" (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 239).

فائدة هذا المبدأ تكمن في تفسيره لطريقة تبليغ المعاني أثناء التواصل، فتبليغ المعاني يكون عن طريق ما يسميه "غرايس" "الاستلزام التخاطبي" (Conversational implicature) وهو نوع من أنواع الاستدلال يعتمد على قواعد ذهنية وسياقات خارجية للوصول إلى المعنى المقصود سواء أكان القول متضمّن له أو غير متضمّن له.

3. التعاون من التبليغ إلى التهذيب:

تعرّض مبدأ التعاون عند غرايس إلى النقد بسبب قصره مبادئ التخاطب على الجانب التبليغي وإهماله للجانب التهذيبي، وأول من أشار إلى هذا القصور هو غرايس نفسه، فقد ذكر أنّ هناك مبادئ أخرى (جمالية واجتماعية وأخلاقية) مثل "كن مهذباً" يلتزم بها المتخاطبون وتولّد دلالات غير مباشرة، وذكر أنّ مبدأه يحتاج إلى توسيع (Grice, 1975, p. 47).

وهذا ما سعى إليه باحثون جاؤوا بعده حاولوا تدارك هذا النقص بإدخال مفهوم التهذيب في قواعد التخاطب إلى جانب مفهوم التبليغ، وكان دافعهم إلى ذلك رؤيتهم للتهذيب على أنه سمة استخدام اللغة، فالتفاعل الاجتماعي البشري يميل إلى التهذيب بمراعاة مشاعر الآخرين والتصرف بطريقة تظهر الاهتمام اللائق بمكانتهم الاجتماعية. ومراعاة مشاعر الناس، بشكل عام، تعني قول الأشياء وفعلها بطريقة أقلّ صراحةً وأكثر تفصيلاً، وهذه الطرق التهذيبية تُمثّل على الأرجح المصدر الأكثر انتشاراً للغموض، وعدم قول المرء ما يعنيه بالضبط (Brown, 2015, p. 326). كما أنّ التهذيب في رؤيتهم ليس زينة سطحية يمكن الاستغناء عنها في اللغة البشرية، بل هو ظاهرة أعمق، شيء يصعب على المتواصلين البشريين الاستغناء عنه، فالأطفال الذين يتعلمون لغتهم الأم يدركون أهمية قول عبارات مثل: "من فضلك" و"شكراً لك"، التي يُصرّ عليها آباؤهم في عملية التنشئة الاجتماعية من أجل أن يصبحوا أعضاء "ملتزمين" في المجتمع البشري. وهذا يوضح لنا أن التهذيب ظاهرة اجتماعية تتجلى في استخدام اللغة (Leech, 2014, p. ix). النماذج التهذيبية التي حاولت تقديم إضافات في هذا المجال كثيرة، فقد ذكر "جيفري ليتش" (Geoffrey Leech) في كتابه "تداولية التهذيب" (The Pragmatics of Politeness) أحد عشر نموذجاً منها نموذجان شريان؛ واحد لللساني صيني هو "يوغواو جييو" (YUEGUO GU)، وآخر لللساني ياباني هو "الدكتور ساشيكو" (SACHIKO IDE)، ثم ذكر بعد ذلك بأن هناك نماذج أخرى غير الأحد عشر المذكورة (Leech, 2014, pp. 32-43). وما يلاحظ بعد قراءة عرض "ليتش" لتلك النماذج أنها تشترك في أمرين:

1. محافظتها على الفكرة الجوهرية في نموذج "غرايس" وهي فكرة التعاون.

2. تأكيدها على أهمية ومركزية مفهوم التهذيب في التخاطب.

وترجع الاختلافات بينها إلى تفسير مفهوم التهذيب، وإن كانت تتقاطع وتتداخل في كثير من الأشياء، فقد استفادت من بعضها كثيراً، وكان كل نموذج يسعى إلى إكمال النقص في النماذج الأخرى دون إلغائها، فـ "ليتش" يدلل على التقارب بينها بنموذج الذي يجمع العديد من سمات النماذج الأخرى (Leech, 2014, p. 43).

أما "طه عبد الرحمان" فقد اقتصر على ذكر ثلاثة نماذج تهذيبية، هي نموذج "التأدب" لللسانية الأمريكية "روبن لاكوف" (Robin Lakoff)، ونموذج "التواجه" لللسانية الأمريكية "بينولوبي برون" (Penelope Brown) واللساني الاجتماعي البريطاني "ستيفن ليفنسون" (STEPHEN C. LEVINSON)، ونموذج "التأدب الأقصى" لللساني البريطاني "جيفري ليتش".

وسبب اقتصار "طه عبد الرحمان" على هذه النماذج الثلاثة دون غيرها أنها أشهر النماذج وأقدمها في الوقت نفسه، وهو قد عبّر بأنه يرى أن أهم النماذج التي درست قواعد التخاطب خمسة، هذه النماذج التهذيبية الثلاثة ونموذج غرايس قبلها ثم نموذجها التصديقي بعد ذلك (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 253).

محمد أمين مقرود

وسنعرض بإيجاز شديد للنماذج التهذيبية الثلاثة التي أوردها "طه عبد الرحمان" ثم نعرض لنقده لها، لأنّ هذا الأمر هو الذي سيوضح السياق الذي ظهر فيها نموذج "التصديقي" وأسباب إنشائه وأهدافه.

1.3. مبدأ التأدب عند روبين لاكوف:

انطلقت "روبين لاكوف" في رؤيتها لقواعد التخاطب من أمرين؛ سعيها إلى إدخال الجانب التداولي في دراسة اللغة، فهي ترى أن الحاجة إلى معرفة القواعد التداولية في بناء العبارات اللغوية لا يقل أهمية عن معرفة القواعد النحوية، "فباستخدام السياق فقط يمكننا تفسير عدم قبول جمل في بعض الظروف، بينما كانت في ظروف أخرى غير قابلة للاعتراض" (Lakoff, 1973, p. 292). والأمر الثاني أنّ قواعد التخاطب لا تقتصر على تحقيق الوضوح فقط وإنما تشمل التعبير عن التهذيب أيضاً، بل إنها ترى أن الوضوح تابع للتهذيب فهو نوع منه، وإذا تعارضاً فإن المتحدث سيقدّم التعبير عن التهذيب على تحقيق الوضوح (Lakoff, 1973, p. 297). استناداً لهذين الأمرين صاغت "لاكوف" مفهوماً أسمته "الكفاية التداولية" (PRAGMATIC COMPETENCE)، وجعلت له قاعدتين هما:

-كن واضحاً (Be clear) -كن مهذباً (Be polite)

وجعلت تحت قاعدة الوضوح كلّ القواعد التي جاء بها "غرايس" في مبدأ التعاون. وفرّعت من قاعدة التهذيب ثلاث قواعد هي:

1. لا تفرض (أي لا تفرض نفسك على المخاطب ولا تتدخل في شؤونه)
2. اترك خيارات (أي دع المخاطب يتخذ قراراته بنفسه واطرك خيارات مفتوحة له)
3. اجعل المخاطب يشعر بالراحة، كن ودوداً (Lakoff, 1973, pp. 296-300).

2.3. مبدأ التواجه عند براون وليفنسون:

أسس "براون" و"ليفنسون" مبدأهما على رؤية اجتماعية من خلال العمل على وضع نموذج تفسيري لاستخدام اللغة في العلاقات الاجتماعية، فاستخدام اللغة -في رؤيتهم- جزأ لا يتجزأ من جوهر العلاقات الاجتماعية، ولذلك قد يتزامن اكتشاف مبادئ استخدام اللغة إلى حدٍ كبير مع اكتشاف المبادئ التي تُبنى عليها العلاقات الاجتماعية في جانبها التفاعلي، الأبعاد التي تمكّن الأفراد من التواصل مع الآخرين بطرقٍ مُحددة (Penelope Brown and STEPHEN C. LEVINSON, 1978, 1987, p. 55). انطلقا من فكرة التعاون التي أسسها "غرايس"، ورأيا كما رأت "لاكوف" أن التعاون بين المتخاطبين يكون على أساس تهديبي، لكنهما أعطيا للتهذيب مفهوماً خاصاً. فعندهما أن التخاطب المثالي يقوم به متخاطب مثالي يتّصف بصفتين: العقلانية والوجهية. وتعني "العقلانية" توافر أسلوب تفكير محدد بدقة يبدأ من الغايات ويصل إلى الوسائل التي تحقق تلك الغايات. وتعني "الوجهية" توقّر رغبتين عند المتخاطب؛ الرغبة في أن يكون غير مرفوض، والرغبة في أن يكون مقبولا (Penelope Brown and STEPHEN C. LEVINSON, 1978, 1987, p. 58). فالعقلانية تضمن المحافظة على التعاون بين المتخاطبين، والوجهية تضمن المحافظة على التهذيب بينهم.

من هنا كان مفهوم "الوجه" (Face) هو المفهوم الجوهرية في نموذجهما، ويعني: الصورة الذاتية العامة التي يرغب كل مخاطب في ادعاءها لنفسه. وهو مفهوم مأخوذ من الاستعمال الشعبي الذي يربط بين "الوجه" ومفاهيم الشعور بالحرج أو الإذلال، أو "فقدان ماء الوجه". وبالتالي، فإن الوجه شيءٌ مُستثمر عاطفياً، ويمكن فقدّه أو الحفاظ عليه أو تعزيزه، ويجب الاهتمام به باستمرار أثناء التفاعل. بشكل عام، يتعاون الناس (ويفترضون تعاون بعضهم) في الحفاظ على ماء الوجه أثناء التفاعل، ويستند هذا التعاون إلى هشاشة الوجه المتبادلة. أي إن وجه كل شخص يعتمد عادةً على الحفاظ على ماء وجه الآخرين، وبما أنه يُتوقع من الناس الدفاع عن وجوههم عند تعرضهم للتهديد، وفي الدفاع عن وجوههم تهديد وجوه الآخرين، فمن مصلحة كل مشارك بشكل عام الحفاظ على ماء الوجه، أي التصرف بطرق تضمن للمشاركين الآخرين أن الفاعل مُراعٍ للافتراضات المتعلقة بالوجه (Penelope Brown and STEPHEN C. LEVINSON, 1978, 1987, p. 60.61).

فتعاون المتخاطبين على صيانة وجه بعضهما هو الشيء الذي يحكم تخاطبهما ويؤثر في اختياراتهما الأسلوبية في الكلام والحديث.

وصيانة الوجه تكون من الأفعال الكلامية المهددة له، ومن هنا كان مفهوم تهديد الوجه (face-threatening act) مفهوماً جوهرياً آخر في هذا النموذج، ويقصد به "الأفعال التي تتعارض بطبيعتها مع رغبات المخاطب أو المتكلم" (Penelope Brown and STEPHEN C. LEVINSON, 1978, 1987, p. 65)

وقد سَمَّى "طه عبد الرحمان" هذا النموذج بـ "التواجه" أي مقابلة الوجه للوجه، وصاغ مبدأه على النحو التالي: لتصن وجه غيرك (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 243).

3.3. مبدأ التأدب الأقصى عند جيفري ليتش:

ينطلق "جيفري ليتش" في نموذج من دراسته للسلوك التواصل البشري، وذلك يعني وصف وتفسير السلوك الظاهر دون اعتبار الدوافع النفسية الداخلية، فقد تكون نيات الأشخاص مختلفة عن سلوكهم الظاهر، لكن الذي يلاحظ ويرصد هو السلوك (Leech, 2014, p. 90).

وانطلاقاً من ذلك يرى "ليتش" أنّ التهذيب قيّد يلاحظ في السلوك التواصل البشري، يدفعنا إلى تجنب الخلاف أو الإساءة التواصلية، والحفاظ على التوافق أو المجاملة التواصلية أو تعزيزهما. وينشأ ذلك الخلاف عندما تتعارض الأهداف التواصلية، ومنه يمكن النظر للتهذيب على أنه السلوك الموجّه نحو هدف، بأن يسعى كل من الطرفين، صراحةً أو ضمناً، وراء أهداف بعضهما. (Leech, 2014, pp. 87,88)

فهناك فكرة جوهريّة عند "ليتش" هي فكرة "الهدف"، فعلى أساسها يبني رؤيته للتهذيب، ويقسم الهدف إلى قسمين: الأهداف الإلقائية (ILLOCUTIONARY GOALS) وهي التي تسعى إلى تحقيقها لغوياً مثل: النصيحة والإذن والاعتذار وغيرها، والأهداف الاجتماعية (SOCIAL GOALS) وهي الحفاظ على علاقات جيّدة مع الناس. لكنّ هذين النوعين من الأهداف قد تتوافق أحياناً (مثل: حال الإطراء)، وقد تتنافس (مثل: حالة النصيحة)، وقد تتعارض (مثل: حالة التوبيخ)، وأحياناً لا تكون بينهما أيّ علاقة (مثل: حالة الإعلان). وعلى أساس ذلك قسم "ليتش" أفعال الكلام إلى أربعة:

- (أ) تنافسي: عندما يتنافس الهدف الإلقائي مع الهدف الاجتماعي، مثل: الأمر، والسؤال، والمطالبة، والتوسل.
- (ب) ودود: عندما يتطابق الهدف الإلقائي مع الهدف الاجتماعي، مثل: العرض، والدعوة، والتحية، والشكر، والتهنئة.
- (ج) تعاوني: عندما يكون الهدف الإلقائي غير مبالٍ بالهدف الاجتماعي، مثل: التأكيد، والإبلاغ، والإعلان، والتوجيه.
- (د) صراعي: عندما يتعارض الهدف الإلقائي مع الهدف الاجتماعي، مثل: التهديد، والالتماس، واللعن، والتوبيخ (Leech, 2014, p. 89).

ويختزل "ليتش" مبادئ التهذيب في مبدأ شامل يسمّيها "الاستراتيجية العامة للتهذيب"، ومفادها: لكي يكون الشخص مهذباً، يُعبّر أو يُلْمَح إلى معانٍ تربط قيمةً إيجابيةً بالمخاطب، أو تربط قيمةً سلبيةً بذاته (Leech, 2014, p. 90) فمعادلة التهذيب هي محاباة الغير والتقليل من الذات، والسعي إلى استبعاد الأنانية اللغوية التي قد تُفشّل التخاطب.

4. نقد طه عبد الرحمان للنماذج التهذبية السابقة:

قدّم "طه عبد الرحمان" نقداً للنماذج التهذبية السابقة تأسس كلّ على رؤية أخلاقية مغايرة، ولم يهتم كثيراً بمسائل أخرى رأيناها في بعض النقود الأخرى كمسألة التوسيع والاختزال، أو مسألة الكونية والنسبية، أو مسألة اللغة والاستعمال، وغير ذلك المسائل.

وقد عاب عليها تغييرها لأمر أربعة في مفهوم التهذيب:

1. غياب مفهوم العمل: ويلاحظ هذا الأمر خاصة في نموذج التأدب عند "لاكوف"، حيث قام على مفهوم مجرد للتهذيب لا يؤخذ فيه بالبنية العملية التي تتحدد بالجمع بين أمرين -في نظر طه عبد الرحمان- هما الوسائل والمقاصد: أي العمل الموصل إلى الإصلاح،

محمد أمين مبرور

فالمفهوم العملي للتّهذيب يعني تقويم السلوك وتوجيهه إلى محاسن الأخلاق (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، الصفحات 242-244)، فالوسائل تعني التوسّل بالتقويم والتوجيه، والمقاصد تعني التوصل بمحاسن الأخلاق.

فنموذج التّأدب من خلال قواعده الثلاث يؤسس لمفهوم للتّهذيب قائم على تفاعل تحريريّ يعمل على ترك الحرية للطرف الآخر دون أيّ التزام عملي أو مسؤولية أخلاقية تجاهه، وهو بذلك يكون تفاعلاً قائماً على صناعة المسافة لا على صناعة التقرب.

2. غياب مفهوم التقرب: ويعني هذا المفهوم - عند طه عبد الرحمن - تحقيق الألفة والأنس والقرب بين المتخاطبين (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 245، 246)، ويظهر غياب هذا المفهوم في نموذج التّأدب كما رأينا لأنه نموذج يقوم على صناعة المسافة التي هي عكس التقرب، ويظهر أيضاً في نموذج "التّواجه" الذي يتأسس على مفهوم "التّهديد" والتقليل منه باعتباره مفهوماً مركزياً، فتصور التّهذيب على أنه تقليل من التّهديد بصيانة المتخاطبين لوجه بعضهما يجعله تهديداً عملياً قائماً على تفاعل التزامي بين الطرفين.

لكن فكرة التّهديد نفسها تنافي فكرة الألفة والأنس؛ إذ إنّ التقرب لا يمكن أن يكون إلا مع وجود التأمين، بأن يجعل مقصد المتكلّم صناعة التأمين لا إزالة التّهديد (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 245).

3. غياب مفهوم الصدق: ويعني مفهوم الصدق في التّهذيب أن ينتفع المتخاطبان بالتّهذيب معاً ولا يتضرّر به أيّ منهما (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 248)، وهذا المفهوم يغيب عن نموذج "التّأدب" لأنه يقوم على تواصل متحرّر من كلّ التّزام وعملٍ تُجاه الطرف الآخر، فلا يمكن أن يؤسس ذلك لانتفاع متبادل بين الطرفين. وأما نموذج "التّواجه" فإنّ الصدق يغيب عنه لأنه يسعى دوماً إلى بناء تخاطب قائم على حفظ الوجه من التّهديد، والشعور بالتّهديد يتنافى تماماً مع الصدق الذي يتأسس على قاعدة الزيادة في حفظ القرب. وأما نموذج "التّأدب الأقصى" الذي يرى "طه عبد الرحمن" أنه حقق مفهوم التقرب بإدخاله لقواعد مؤمّنة للمتخاطبين تقوم على التواضع والاستحسان والتوافق والتعاطف، إلا أنّه غاب عنه مفهوم الصدق لكون مفهوم التقرب عنده تظاهراً لا يقوم على مفهوم التبادلية في النفع وعدم الضرر، بل ما ينتفع به أحدهما قد يضرّ الآخر والعكس (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 248)، فليكون المتكلّم مهذباً يجب أن يربط ذاته بقيمة سلبية ويربط المخاطب بقيمة إيجابية، وهذا يتنافى مع مفهوم الصدق.

4. غياب مفهوم الإخلاص: الإخلاص هو أن يقوم التّهذيب على القيم والمعايير المعنوية والتجرد المتبادل عن الأغراض (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 249)، وهذا المفهوم يغيب عن النماذج السابقة كلها، فنموذج التّأدب يقوم على قيم ماديّة تدور حول مفهوم "الراحة" في التخاطب دون اعتبار لفكرة التبادل أصلاً، ونموذج التّواجه ينطلق من قيم ومعايير تبادلية مادية غير متجذّرة عن الأغراض وتمثل في الحفاظ على الوجه الاجتماعي للمتخاطبين.

وأما نموذج التّأدب الأقصى فيغيب عنه مفهوم الإخلاص لكونه يجعل من التبادلية التواصلية تقوم على خاصية الربح والخسارة، وهذا يقتضي الفائدة والخدمات والمصالح مما يجعل منه أقرب إلى المعاملة التجارية (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 249).

5. نموذج التصديق عند طه عبد الرحمن:

بعد أن قدّم - طه عبد الرحمن - نقداً للنماذج التّهذيبية السابقة، سعى بعد ذلك إلى بناء نموذج جديد يلبي مفهوم التّهذيب بأبعاده الأربعة (العمل، والتقرب، والصدق، والإخلاص) فيكون جامعاً لما جاء في النماذج السابقة ومكمّلاً لما غاب عنها، ولما كان نموذج "التّأدب الأقصى" أكثر النماذج تلبية للأبعاد التّهذيبية السابقة حيث حضر فيه "العمل" و"التقرب" وغاب عنه "الصدق" و"الإخلاص"، كان سعي "طه عبد الرحمن" إلى تكملة غياب هذين البعدين أساساً مع الحفاظ على البعدين الآخرين.

سعى "طه عبد الرحمن" نموذجاً بـ "مبدأ التصديق"، وصاغه كما يلي: "لا تقل لغيرك قولاً لا يصدّقه فعلك"، وقسمه إلى جانبين: الجانب التبليغي ويتلخص في "نقل القول"، والجانب التّهذيبي ويتلخص في "تطبيق القول"، ثم فرّع من كلّ جانب نوعين من القواعد؛ قواعد تواصل وقواعد تعامل.

قواعد التواصل أربعة هي:

1. ينبغي للكلام أن يكون لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر.
2. ينبغي أن يأتي المتكلم به في موضعه ويتوخى به إصابة فرصته.
3. ينبغي أن يقتصر الكلام على قدر حاجته.
4. ينبغي أن يتخير اللفظ الذي به يتكلم.

وقواعد التعامل ثلاثة هي:

1. قاعدة القصد: لتتفقد قصدك في كل قول تلقي به إلى الغير.
2. قاعدة الصدق: لتكن صادقا فيما تنقله إلى غيرك.
3. قاعدة الإخلاص: لتكن في توددك للغير متجردا عن الأغراض.

وذكر "طه عبد الرحمان" أنه استخرج قواعد التواصل من كتاب "أدب الدنيا والدين" للماوردي، واستخرج قواعد التعامل من كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 249، 250)

ويمكن أن نورد ملاحظة عامة على نموذج "التصديق" بأن نقول إنه نموذج يجمع بين "الامتداد" و"التعديل": فهو امتداد للنماذج التخاطبية السابقة لكنه سعى إلى تعديل نقائصها، مثله في ذلك مثل النماذج التخاطبية الأخرى التي سارت على المنوال نفسه الذي وضعه "غرايس" مع إجراء تعديلات. ويختلف عن النماذج الأخرى بكونه نموذجا إسلاميا بُني على رؤية أخلاقية إسلامية. ويظهر الامتداد عند "طه عبد الرحمان" في أمور:

- الوصف: ف"طه عبد الرحمان" عندما قدّم نموذجَه وصفه بأنه "المبدأ التداولي الخامس"، ووصف "المبدأ التداولي" ووصف مشترك لكل النماذج السابقة منذ "غرايس".

- التضمين: يذكر "طه عبد الرحمان" أنّ نموذجَه في جانبه التبليغي تضمن كل ما جاء من قواعد في مبدأ التعاون عند "غرايس"، كما أنّه تضمّن في جانبه التهذيبي كل مزايا المبادئ التهذيبية الأخرى.

- التطور: يضع "طه عبد الرحمان" نموذجَه في مسار تطوري لنماذج التخاطب، فالمسار نفسه لكنه مرحلة متطورة منه.

- الشكل: حرص "طه عبد الرحمان" على بناء نموذجَه بالطريقة نفسها التي بنيت عليها النماذج الأخرى، من صياغة مبدأ عام ثم تفريعه إلى قواعد، ثم صياغة القواعد بصيغة الأمر التي هي محاكاة تفسيرية للقواعد التي يمتلكها المتخاطبون في أذهانهم وليست أوامر معيارية، وإن كان "طه" حاول التخفيف من صيغة الأمر حتى في ترجمته للنماذج الأخرى باستعماله لصيغة الفعل المضارع المقرون بلام الأمر، أو استعماله لكلمة "ينبغي" بدل "يجب" أو "يلزم" إلا القاعدة الرابعة من قواعد التواصل التي صاغها بصيغة "يجب".

وأما التعديل فمسّ جانبي التخاطب:

- الفصل والوصل: حيث أحدث "طه عبد الرحمان" شيئا جديدا لا نجده في النماذج الأخرى التي كان الجانبان التواصل والتعاملي متداخلين فيها، وذلك بإحداثه الفصل الواضح بين الجانب التبليغي (التواصل) والجانب التهذيبي (التعامل) مع الوصل بينهما بقاعدة تهذيبية لها جانب تبليغي هي قاعدة "القصد".

- التعديل في الجانب التبليغي: ويظهر ذلك في إخراج "الصدق" من الجانب التبليغي إلى الجانب التهذيبي، لأن مفهومه عند "طه عبد الرحمان" يتجاوز القول إلى العمل.

- التعديل في الجانب التهذيبي: وكان ذلك في أمرين:

- 1- التهذيب: من التأديب الاجتماعي إلى التخلق: حيث أعطى له "طه عبد الرحمان" مفهوما جديدا تمثل في أنه "التقرب الصادق الخالص"، ويتضمن التقرب شيئا آخر هو العمل أو المسؤولية الأخلاقية، فتكون أركان التهذيب أربعة: العمل والتقرب والصدق والإخلاص.

محمد أمين مقرود

وبإضافة "طه عبد الرحمان" لركني "الصدق" و"الإخلاص" يكون قد أضاف بعددين للتّهذيب تجنّبت كل النماذج السابقة استحضارهما وهما: "الجانب النفسي" و"الجانب التعبدي"، فالنماذج السابقة حصرت مفهوم التّهذيب في الجانب الظاهر من العلاقات الاجتماعية، فجعلته تظاهرا من أجل المحافظة على العلاقات الاجتماعية، وصرح بعض أصحاب النماذج – كما رأينا ذلك سابقا عند "ليتش" – بأنه لا يعتدّ بالجانب النفسي الداخلي، فإن اختلف الظاهر مع الباطن فالعبرة بالظاهر. وأما الجانب التعبدي فلم تتحدث عنه النماذج السابقة لأنه مستبعد أصلا. والحجة عند تلك النماذج أنه لا يمكن رصد الجانب النفسي الداخلي فضلا عن الجانب التعبدي الغيبي، لكنّ "طه عبد الرحمان" كان واعيا لهذا الأمر وإن لم يصرح به، وذلك عندما صاغ نموذجه في عبارة "لا تقل لغيرك قولا لا يصدّقه فعلك"، فكأنه يقول بذلك إن رصد الجانب النفسي والجانب التعبدي يكون بمراقبة الأفعال ومدى تصديقها للأقوال، فإنّ تصديق الأفعال للأقوال لا يكون إلا من صدق داخلي، وهذا الصدق الداخلي لا يمكن أن يكون إلا بتعلّق غيبي؛ لأنّ إرادة الأغراض الخارجية فقط في التخاطب المهدّب لا يستلزم منه تصديق الأفعال للأقوال، لكن إرادة وجه الله في التخاطب المهدّب يستلزم ذلك التصديق. وتصديق الأقوال للأفعال –عند طه عبد الرحمان – يكون إما بالتطابق بينهما أو بسبق الأعمال للأقوال. فيكون التّهذيب بذلك تأديبا اجتماعيا وتخلّقا ذاتيا، أو هو علاقات اجتماعية وعلاقات غيبية.

2-العلاقات التخاطبية من التنازع إلى التجرد: حينما يعرّف التّهذيب بأنه تقرب صادق خالص فهذا يخلصنا من تصوّرين سائدين للعلاقات التخاطبية؛

الأول: أن العلاقات التخاطبية قائمة على التنازع، ويأتي التّهذيب ليحدّد من ذلك التنازع، أو يحمي المتخاطبين من التّهديد القائم بينهما.

والثاني: أن العلاقات التخاطبية قائمة على المصالح، وتحصيلها يحتاج إلى إظهار التّهذيب، وعندما يكون الإظهار غرضيا فإنه يكون تظاهرا.

وإذا تخلص التّهذيب من هذين المفهومين كان تقرّبا مجرّدا.

فالتّهذيب في مفهوم "طه عبد الرحمان" يقوم على ثلاثة أبعاد؛

البعد الاجتماعي: أي العلاقات الاجتماعية بين المتخاطبين، وأساسها القرب.

البعد النفسي: أي العلاقات النفسية بين المتخاطبين، وأساسها الصدق.

البعد التعبدي: أي العلاقات المجردة عن الأغراض بين المتخاطبين، وأساسها الإخلاص.

6.الخلفية المعرفية لنموذج التصديق عند طه عبد الرحمان:

يرتكز نموذج التصديق على خلفية معرفية متعدّدة المشارب، منها اللساني والأخلاقي والتراثي، لكنّها وإن اختلفت مشاربها تنتظم في نسق واحد، وتمثل هذه الخلفية المعرفية فلسفة "طه عبد الرحمان" التداولية، فما وجدناه في هذا النموذج أنه جاء متّسقا ومنسجما مع النسق الفلسفي الطّهويّ.

1.6.الخلفية اللسانية: ينطلق "طه عبد الرحمان" من خلفية لسانية تداولية ترى أن الدراسة اللسانية تقوم بوصف وتفسير

العلاقات التي تجمع اللغة الطبيعية بمستعملها ومقامات الاستعمال، أو ما عبّر عنه ب"العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها وبين الدالين بها" (طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، 2000، صفحة 28)، وشروط التداول اللغوي تقوم على "النطقية" و"الاجتماعية" و"الإقناعية" و"الاعتقادية" (طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، 2000، صفحة 37، 38)، وقد انعكست هذه الرؤية اللسانية في تصوّره للعلاقة التخاطبية بأنها خطاب بين ذاتين فأكثر يقومان بوظيفتي التواصل (التبليغ) والتعامل (التّهذيب)، وتوصّل لهذه النتيجة بعد أن أسس لمجموعة من المبادئ:

-الكلام أصل في التواصل: حيث يرى أنّ التواصل متى ما ذكر استحضّر مفهوم الكلام باعتباره أصلاً ووسائل التواصل الأخرى باعتبارها فروعاً.

-لا كلام بغير خطاب: إذ إن الكلام لا تقوم حقيقته بمجرد النطق بألفاظ دالة، بل لابدّ له من قصدين: قصد التوجه إلى الغير، وقصد إفهام الغير. والجامع بين هذين الأمرين هو الخطاب، إذ الخطاب يعرف بأنه "كلّ منطوق به، متجّه إلى الغير، بغرض إفهامه مقصوداً مخصصاً".

-لا خطاب دون مخاطب: حيث يتبيّن من التعريف السابق للخطاب أنّه يستلزم عملية تخاطبية كاملة تتكوّن من مخاطب ومخاطب وعلاقة بينهما تقوم على قصد التوجه وقصد الإفهام. فالقصد هو الذي يؤسس للعلاقة.

-العلاقة التخاطبية تواصل وتعامل: إذ إنّ هذه العلاقة لا تقوم على "النقل" فقط لأنّ هذا تقوم به الآلة، لكن التخاطب تقوم ذوات إنسانية، والمحدّد لإنسانية الإنسان عند "طه" ليس العقلانية المجردة فحسب، فهذه العقلانية تقودنا إلى اعتبار الجانب التواصلية فقط، بل هو يجعل لها محدداً آخر وهو الخاصية الأخلاقية وهي التي تقود إلى اعتبار الجانب التعاملي. ولذلك يرى أنّ أقوال الإنسان لا تزيد عن كونها أفعالا منضبطة بالأحكام الخلقية. ولذلك نجد في اللسان البشري ألفاظاً تستعمل في الجانب التعاملي تنقل للدلالة على الجانب التواصلية مثل: كلام مستقيم، كلام مهذب... فالاستقامة والتهذيب أحكام خلقية في أصلها. (طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 1997، صفحة 216، 224)

2.6. الخلفية الأخلاقية: تقوم الخلفية الخلقية عند "طه عبد الرحمان" على عدّة مبادئ:

-الإنسان كائن أخلاقي: ويعني ذلك أنّ الأخلاقية هي ما يكون به الإنسان إنساناً، فلا إنسانية بغير أخلاق، فهي الأصل الذي تتفرّع عليه كلّ صفات الإنسان، وحتّى العقلانية التي يوصف بها الإنسان تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي (طه، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربي، 2000، صفحة 14، 54، 55).

-التجليّ الأخلاقي في الفعل الإنساني: إذا كانت الأخلاق أصلاً لإنسانية الإنسان فينبغي أن تتجلى في كلّ فعل من أفعاله، مهما عظم هذا الفعل أو صغر، ومهما كان تأملاً مجرداً أو سلوكاً مجسّداً (طه، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربي، 2000، صفحة 15)، ونتيجة لهذا الأمر يكون التجليّ الأخلاقي في التخاطب البشري أمراً ضرورياً لا مناص منه.

-البعد الغيبي للأخلاق: يرى "طه عبد الرحمان" أنّه لا أخلاق بدون غيبيات، وعلى هذا الأساس تكون أسباب الأخلاق موصولة بأسباب الدين (طه، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربي، 2000، صفحة 25)، ومن هنا نفهم شيئين في نموذج التصديق:

1. إدخاله للجانب الغيبي في مفهوم التذهيب وتمثل في البعد النفسي والبعد التعبديّ.

2. الخلفية الدينية للنموذج الذي أسسه على مفاهيم دينية إسلامية.

3.6. الخلفية التراثية: وتظهر هذه الخلفية في المجال الخلقي عند "طه عبد الرحمان" بإبطاله دعوى ضعف العناية التراثية

بعلم الأخلاق، وردّ عليها بأمور ثلاثة:

الأول: أن العلوم الخادمة للشريعة الإسلامية جاءت محققة لمبدأ "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

الثاني: أن النظر إلى الأخلاق في التراث الإسلامي كان نظراً عملياً وتجلّى ذلك في علم الفقه وعلم الكلام وعلم السلوك.

الثالث: الاعتقاد في وجود كليات أخلاقية عملية فطرية، ويظهر ذلك في توسيع العلماء المسلمين لنظرتهم للأخلاق بإدخال

المفاهيم اليونانية فيها (طه، تجديد المنهج في تقويم التراث، 2001، الصفحات 385 - 387).

وهذا الأمر يفسّر لنا بناء "طه عبد الرحمان" لنموذجه على أساس تراثي، حيث اعتمد فيه على عمليتين تراثيتين أخلاقيين هما:

أدب الدين والدنيا للماوردي، وإحياء علوم الدين للغزالي.

نتائج البحث:

توصلنا في هذا البحث إلى جملة من النتائج:

1. أن مفهوم التعاون الذي وضعه "غرايس" مفهوم مشترك حافظت عليه كلّ نماذج قواعد التخاطب.
2. نقد "طه عبد الرحمان" للنماذج السابقة عليه كان نقداً مؤسساً على شيء واحد وهو الرؤية الأخلاقية.
3. نموذج التصديق جمع بين الامتداد والتعديل، تمثّل الامتداد في (التوافق مع النماذج السابقة في كونه نموذجاً تداولياً يتضمن قواعد التعاون والقواعد التهذيبية التي جاءت بها، مع المحافظة على الطريقة الشكلية في بناء النموذج)، وتمثّل التعديل في (التكامل لنقائص النماذج السابقة في جانبيها التبليغي والتهديبي).
4. كان التعديل في الجانب التبليغي متمثلاً في إخراج مفهوم "الصدق" من الجانب التبليغي، وجعله الجانب التبليغي موصولاً بالجانب التهديبي دون أن يكون متداخلاً معه كما فعلت النماذج الأخرى.
5. كان التعديل في الجانب التهديبي كبيراً؛ لأنه أدخل فيه بعدين غائبين في كلّ النماذج السابقة وهما: البعد النفسي والبعد التعبدّي، فكان مفهوم التهذيب عنده ذا أبعاد ثلاثة هي: البعد الاجتماعي وأساسه القرب، والبعد النفسي وأساسه الصدق، والبعد التعبدّي وأساسه الإخلاص.
6. الخلفية المعرفية لنموذج التصديق تتمثل في الفلسفة التداولية لـ "طه عبد الرحمان" في جوانبها اللسانية والأخلاقية والتراثية، وبذلك يكون هذا النموذج متسقاً ومنسجماً مع فلسفة مؤسسه.

خاتمة:

قدّم البحث صورة عن مسألة قواعد التخاطب، بيّن فيها خلفياتها المعرفية وأهمّ النماذج التي حاولت محاكاتها، وأوضح أنّ تلك النماذج وإن اختلفت فيما بينها إلّا أنها حافظت على أهمّ فرضيّات النموذج الأوّل عند "غرايس" وطريقة صياغته؛ فكانت فكرة التعاون بين المتخاطبين التي وضعها "غرايس" شيئاً ثابتاً في كلّ النماذج اللاحقة، واشتركت النماذج الناقدة للنموذج الغرايسي التي تطرّق إليها البحث في أنّ نقدها له يدور حول افتقاره إلى الجانب التهديبي، لكنّها اختلفت في تحديد مفهوم "التهذيب"، فكان كلّ نموذج يسعى إلى تعديل مفهوم "التهذيب" في النموذج أو النماذج السابقة عليه. وجاء "طه عبد الرحمان" بنموذجه المسّمي "مبدأ التصديق" الذي أسسه على نقد النماذج التهذيبية السابقة عليه في تغييرها لأربعة أشياء في مفهوم "التهذيب" وهي: العمل، والقرب، والصدق، والإخلاص. وإذا كان "العمل" و"القرب" موجودين بصورة ما في بعض النماذج السابقة، فإنّ "الصدق" و"الإخلاص" يمثلان إضافة جديدة لـ "طه عبد الرحمان". وتوصّلنا إلى استنتاج لم يصرّح به "طه عبد الرحمان" وهو أنّ نموذج "التصديق" قد أسس مفهومًا جديدًا لـ "التهذيب" يقوم على ثلاثة أبعاد هي: البعد الاجتماعي وأساسه القرب، والبعد النفسي وأساسه الصدق، والبعد التعبدّي وأساسه الإخلاص. ويكون بذلك قد أضاف بعدين غائبين كلياً عن النماذج التهذيبية السابقة التي اقتصر جميعها على بعد واحد وهو البعد الاجتماعي، فجعلت "التهذيب" تظاهراً من أجل المحافظة على العلاقات الاجتماعية. وكانت حجّة تغييب البعد النفسي في النماذج السابقة كونه شيئاً باطنياً غير ظاهر لا يمكن رصده في العملية التخاطبية، وقد استخرجنا حجّة مضادة من "مبدأ التصديق" الذي صيغ في عبارة "لا تقل لغيرك قولاً لا يصدّقه فعلك"، فهو يجعل إمكانية رصد البعد النفسي وكذلك البعد التعبدّي من خلال مراقبة مطابقة الأفعال للأقوال.

قائمة المصادر والمراجع:

- إسماعيل، صلاح (2005). نظرية القصديّة في المعنى عند جرايس. الكويت: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعيّة.
- الأمدي، أبو الحسن (د.ت). الإحكام في أصول الأحكام، تح: عبد الرزاق عفيفي، بيروت: المكتب الإسلامي.
- أوريكيوني، كاترين (2007). فعل القول من الذاتية في اللغة. (د.ط)، تر: محمد نظيف، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
- باتريك شارودو، دومينيك منغنو. (2008). معجم تحليل الخطاب، (ط1)، تر: حمادي صمود وعبد القادر المهيري، تونس: منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة.
1. دان سبيرر، ديردي ويلسن (2016). نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، (ط1)، تر: هشام الخليفة، بنغازي، بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة.

2. صحراوي، مسعود. (2005). التداولية عند العلماء العرب، (ط1)، بيروت: دار الطليعة.
- عبد الرحمان، طه. (2000). سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحدثة الغربي، (ط1)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- عبد الرحمان، طه. (2000). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، (ط2)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- عبد الرحمان، طه. (2001). تجديد المنهج في تقويم التراث، (ط2)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- عبد الرحمان، طه. (1997). اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، (ط1)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- فاخوري، عادل. (2013). محاضرات في فلسفة اللغة، (ط1)، بنغازي، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- مقرود، محمد لمين. (2020). المعنى في التداوليات المعاصر: من الإحالة إلى الاستدلال. ضمن: ب. عليّة، دراسات في الدلالة وتطبيقاتها (ط1)، قسنطينة: ألفا للوثائق.
- Brown, P. (2015). Politeness and Language. International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences, 18, 326 - 330.
- Grice, H. P. (1975). Logic and Conversation. Dans P. C. Morgan, Syntax and Semantics (pp. 41 - 58). New York: Academic Press.
- Lakoff, R. (1973). The logic of politeness: Or, minding your p's and q's. the 9th Regional Meeting of the Chicago Linguistic Society (pp. 292-305). Chicago: Chicago Linguistic Society.
- Leech, G. (2014). The Pragmatics of Politeness. New York: Oxford University Press.
- Penelope Brown and STEPHEN C. LEVINSON. (1978, 1987). Politeness Some universals in language usage. Cambridge: Cambridge University Press.